الهوية الثقافية في الأدب الجزائري المُهاجر: من مقاومة الاستلاب إلى استرداد الذات

الدكتورة/ابتسام بوطي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسم اللغة العربية وآدابها

البريد الالكتروني: ibtissembouti84@gmail.com

ملخص:

تروم هذه المقاربة البحث في مسألة الهوية الثقافية في الأدب الجزائري المُهاجر، من منظور يتتبع مسار هذا الأدب في رحلته من مقاومة الاستلاب الثقافي إلى عملية استرداد الذات وصون الذاكرة الوطنية، فقد شكّل الأدب الجزائري المكتوب بلغات أجنبية ولا سيما الفرنسية فضاء مميزا للتعبير عن الانتماء الوطني والوعي بالذات الجماعية في سياق الاستعمار وما بعده، ومن خلال توظيف الرموز التاريخية والثقافية المستمدة من الذاكرة الشعبية، تمكّن الكتّاب الجزائريون من ترويض لغة الآخر واستخدامها كأداة لمقاومة الهيمنة الثقافية، بعد المساعي الظالمة والسياسات اللا مشروعة التي مارسها الغازي لمحو اللغة العربية وفَرض لغته الفرنسية.

تُبرز المداخلة مدى أهمية الأدب الجزائري المُهاجر ضمن التّحول الخطابي، ومدى إسهام هؤلاء الأدباء عبر نصوصهم المكتوبة بلغات غير العربية في ترميم الذات الجماعية وصون الذاكرة الوطنية وإعادة إنتاجها فنيا، بما جعل من الكتابة فعلا تحرريا يسعى إلى مناهضة الآخر ومواجهته داخل لغته.

الكلمات المفتاحية: هوية- ثقافية- خطاب- أدب- مُهاجر- جزائري- ذات- انتماء

ABSTRACT :

This approach aims to explore the issue of cultural identity in Algerian diaspora literature, from a perspective that traces the path of this literature in its journey from resisting cultural alienation to the process of self-recovery and preserving national memory.

Algerian literature written in foreign languages, especially French, has constituted a distinct space for expressing national belonging and awareness of the collective self in the context of colonialism and its aftermath, through the use of historical and cultural symbols derived from popular memory.

Algerian writers were able to tame the language of the other and use it as a tool to resist cultural hegemony, after the unjust efforts and illegitimate policies practiced by the invader to erase the Arabic language and impose his French language.
The intervention highlights the importance of Algerian diaspora literature within the discursive transformation, and the extent to which these writers, through their texts written in languages other than Arabic, have contributed to the restoration of the collective self, the preservation of national memory, and its artistic reproduction, making writing an act of liberation that seeks to oppose and confront the other within its language.
Keywords: **identity, culture, discourse, literature, immigrant, Algerian, self**.

تقديم:

إنّ الأدب الجزائري المكتوب باللغات الأجنبية -وفي مقدّمتها اللغة الفرنسية- من أبرز الفضاءات التي برزت فيها إشكالية الهوية، في بعدها المركب والمشحون بالتوتر بين الذات والآخر، بين اللغة الأم ولغة المُستعمِر، إذ لم تكن الكتابة بلغة الآخر مجرد خيارٍ ثقافي، وإنّما شكّلت- في أحايين كثيرة- موقفا وجوديا وثقافيا، لذلك يعدّ اليوم موضوع الهوية الثقافية من القضايا المركزية في الفكر الإنساني المعاصر، لما يحمله من أبعادٍ متشابكة بين الذات واللغة والتاريخ والانتماء، وفي السياق الجزائري اكتسبت مسألة الهوية بعدًا استثنائيًا بسبب التجربة الاستعمارية الطويلة التي لم تكتفِ بالهيمنة السياسية والاقتصادية، بل امتدت إلى محاولة محو الذاكرة اللغوية والثقافية للشعب الجزائري.

لقد برز الأدب الجزائري المكتوب بلغات أخرى كأحد أهمّ الفضاءات التي تمّ فيها تجسيد هذا الصراع الهويّاتي، فالكُتّاب الجزائريون الذين اختاروا – أو اضطروا – إلى الكتابة بلغة المستعمِر، وجدوا أنفسهم أمام معادلة معقدة: كيف يمكن التعبير عن الذات الوطنية والثقافة المحلية بلغة الآخر؟ وهل الكتابة بلغة المستعمِر تمثّل خضوعًا لسلطة لغوية وثقافية أجنبية، أم يمكن أن تتحوّل إلى أداةٍ لمقاومة الاستلاب وإعادة إثبات الذات؟

ومن هذا المنطلق، تروم هذه المقاربة البحث في مسارات الخطاب الجزائري المكتوب بغير العربية، ومن ثمَّ تقف عند الكيفية التي تحوّل بها هذا الأدب من أداةٍ قد تُكرّس الاستلاب، إلى وسيلة لاسترداد الذات وإعادة ترميم الهوية، فبين مقاومة اللغة الغازية وترويضها للتعبير عن الوجدان الجزائري، تشكّلت تجربة أدبية غنية تعكس عمق الصراع بين الذات والآخر وبين الوطن والمنفى وبين اللغة والهوية.

عطفا على ما سبق، تسعى هذه المداخلة إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات الجوهرية، من بينها:

-كيف تتجلّى الهوية الثقافية الجزائرية في النصوص المكتوبة بغير العربية؟

ما هي الآليات الرمزية التي يعتمدها الكُتّاب الجزائريون لاستعادة صوتهم داخل لغة الآخر؟

وكيف انتقل هذا الأدب من حالة الاغتراب والتنازع اللغوي إلى مرحلة استرداد الذات وإعادة التوازن الهويّاتي؟

إنّ الهدف من هذه الدراسة هو محاولة كشف مظاهر مقاومة الاستلاب الثقافي واللغوي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ورصد التحولات التي طرأت على الخطاب الأدبي الجزائري لخلق فضاء مزدوج يُمكنهم من التعبير عن الذات الجزائرية وإعادة بنائها الثقافي، ومن الكتابة بوصفها "وسيلة تكيّف" إلى الكتابة بوصفها "فعل استرداد."

أولا: الهوية كآلية للاستمرارية والمقاومة الثقافية:

في ظل التحولات العميقة التي يشهدها العالم المعاصر، تبرز الهوية بوصفها أحد المفاهيم الجوهرية التي تشكل محورا أساسيا في مقاربة قضايا الانتماء والذاكرة الجمعية وبناء الذات الجماعية، ذلك أن الهوية يُمكن عدّها نتاج سيرورة تاريخية وثقافية تتقاطع فيها عوامل عدّة تتشكل ضمنها، ومن بين أهم هذه العوامل نجد السياقات السياسية والاجتماعية والثقافية لدى جماعة معيّنة، كذلك تشكّل الهوية مجالا حيويا للمقاومة الرمزية –وهو ما ستطرحه هذه الدّراسة- إذ تُمثل أداة مركزية في الحفاظ على الخصوصيات الاجتماعية والحضارية وتقف مواجِهة لمحاولات الطمس أو الإقصاء التي غالبا مارستها القوى المثيمِنة ضد الشعوب المُهَيْمَن عليها.

1-1-الهوية السردية والآخر؛ سجالات الذات والاختلاف:

تكتسب دراسة الهوية بمختلف أبعادها أهمية خاصة لفهم كينونة المجتمعات وتكتلاتها التي فرضتها سياقات عدّة، وفي هذا الشأن تُفهم الهوية Identity ضمن الدّراسات الثقافية بأنها: "إنشاء ثقافيا لأن المصادر الخطابية التي تكوّن مادية الهوية تعدّ مصادر ثقافية بطبعها، وبشكل خاص، فنحن مشكلون كأفراد داخل عملية اجتماعية يمكن فهمها عادة كمثاقفة، ودونها لا يمكن أن نكون أشخاصا، والواقع أن ماهية الشخص تشكلها الأسئلة الثقافية...ودون لغة لا يمكن لمفهوم الهوية أن يتضح لنا"**1** وتبعا لذلك يُعدّ مفهوم الهوية –بوصفه مصطلحا فلسفيا متغيرا وغير ثابتٍ- أكثر المفاهيم إشكالية وتعقيدا، نظرا لتداخله مع حقول معرفية متعددة، ولارتباطه الوثيق بالسياقات التّاريخية والسياسية والاجتماعية التي يعاد من خلالها إنتاجه، فالهوية لا تُفهم باعتبارها جوهرا ثابتا أو معطى مُسبقا، لكن بوصفها بناء خطابيا يتشكل عبر عمليات تفاعل اجتماعي وممارسات رمزية مُتّفق عليها ضمن الجماعة –العُرف الاجتماعي-، حيث تُسهم هذه الممارسات في صياغة تصورات الأفراد والجماعات لأنفسهم ولغيرهم، وفي رسم الحدود التي تحدد الانتماء والاختلاف "فما أن يدرك المرء أن أية هوية هي هوية سردية في الأساس، فإنه سوف يكتشف البدايات غير المحدودة التي يتعذر طمسها في أصل ذاكرة أي جماعة"**2**

هذه الحدود وصفها مالك بن نبي في كتابه "مشكلة الثقافة" بالمحيط المعنوي والمادي (وهي عملية تفاعلية/تركيبية بين الفرد والمجتمع تُسهم في بناء ثقافة الفرد ومن ثمَّ انتمائه)، في الحقيقة "هناك ارتباط بين سياسات الهوية وبين تلك "المفاوضات العملية والسياسية المتعلقة بهوية جماعة ما أو طبيعتها، والتي تنطوي في العادة على ضرب من تلاحم، بحيث يمكن القول من الذي ينتمي إليها ومن الذي لا ينتمي، وعادة ما تقتضي وجود أسطورة أو قصة تتعلق بالأصول، بحيث يمكن تتبع تاريخ هذه الجماعة وصولا إلى حدث نوعي أو سلسلة من الأحداث"3

وإذا توجهنا إلى الهوية وعلاقتها بالثقافة/ الأدب، فلا يُمكننا الفصل بينهما، فالأدب مثلا ليس بمنأى عن الهوية، بل هو الهوية، لأنه ينشأ فيها ويتفاعل معها وهو حتما يتمثّل ضمنها، حتى أن الخطاب في وقتنا الرّاهن أصبح أحد الأدوات المركزية في إنتاج الهوية وإعادة تشكيلها، ووفقا لذلك يرى ويليام جيمس "أن الهوية ظاهرة ثقافية نفسية اجتماعية تقع عند نقطة تقاطع بين معرفة الذات من طرف الإنسان نفسه ومن طرف الآخرين، هذا يعني أنّها لا تنفصل عن الثقافة التي تتغذى عليها محققة الهوية الثقافية، وما تتضمنه هذه الثقافة من عادات وأنماط سلوكية وقيم ونظرة إلى الكون والحياة"4

حيث أن الهوية الثقافية بما تحمله من رموز داخل الخطابات الأدبية تُسهم –بشكل أو بآخر- في بلورة الوعي الهوياتي لدى الشعوب المُستعمَرة، ومن ثمَّ فهي تُعيد تشكيل الذات الجماعية لتواجه الآخر وتناهضه وتقوّض هيكلة الخطاب الكولونيالي الذي كرّسه لفترات طويلة من الزمن، يذهب جابر عصفور في هذا الصدد إلى أن الهوية الثقافية تُمثّل "الخصائص النوعية التي تحدد ثقافة عن غيرها، وتجعلها تتمايز وتختلف بالقياس إلى بقية الثقافات، والهوية الثقافية تتكون من عناصر ثابتة، عميقة الجذور، ضاربة في العمق التّاريخي للأمة التي تنتسب إليها الثقافة، وعناصر متغيرة مشروطة بالتّاريخ المتحول لهذه الأمة بكل لوازمه"5

وتبعا لذلك تُفهم الهويات داخل الدراسات الثقافية "على أنّها أدائية-خطابية، بمعنى أن الهوية من الأفضل أن توصف كممارسة خطابية تُحدِثُ وتنتج ما تسميه من خلال اقتباس وتكرار معايير واصطلاحات معينة،ومفهوم الهوية يستخدم بالأحرى لربط الداخل الوجداني للأشخاص بالخارج الخطابي، بمعنى أن الهوية تمثل عمليات من خلالها يتم إنشاء مواقع للذات بشكل خطابي، لتصبح هذه المواقع مسلم بها (أو بطريقة أخرى) بواسطة تماهيات صور ذهنية لأشخاص واستثمارات وجدانية... والدليل على أن الهوية ليست كيانا كونيّا بل إنشاء خطابي محدد بشكل ثقافي يستند إلى

تفسير ذي نزعة غير تمثيلية للغة من خلاله يُعرِّفُ الخطاب ويُنشئُ ويُنتج موضوعات المعرفة، بناء على ذلك ما يمكن قوله حول الخصائص الثقافية، للرجل مثلا، مقيدا ثقافياً"6

تُشير عديد من الدّراسات المشتغلة ضمن هذا الحقل أن الهوية ليست كيانا ثابتا أو مغلقا، بل هي نتاج سيرورة سياسية/اجتماعية وثقافية/تاريخية، ومن ثَمّ فالهوية تتشكل عبر هيكلة من المعتقدات والقيم والرموز والعلامات التي تتداولها الجماعة عبر الزمن ونعني بذلك (العادات، التقاليد، الأعراف، القيم الاجتماعية، الموروثات الشعبية...)، هذه الرموز تُسهم إلى حدٍ بعيد في إعادة بلورة الهوية داخل المتون السردية أو بمعنى أصح تُمثّل الهوية الثقافية عبر استخدام الرموز جوهر السرد وهويته وتُحدد انتماء الفرد فـ "السرد التخييلي يشتغل على استعادة جذور الهوية بتكريس الماهيات الثابتة الجوهرانية، والوقوف عند البدايات المؤسسة، وهو التفسير الخطي للهوية، الذي يتخذ من الميل التبجيلي للأنا ولانتمائها هدفا له، أي أن الهوية ستكون بناء مستمرا للأنا في ثباتها، فالهوية هي حضور الأصل بكل كثافته وبكل قدرته الخارقة على حكاية النشأة ومنعطفاتها الكبرى التي حافظت على جوهره وتميزه وخصوصيته، وتطابقه مع ذاته في وحدة واحدة، فالسرد الميثولوجي يمثل إرادة الهوية لتأمين بقائها ولتأمين علاقتنا بالعالم أيضا"7

حيث تُسهم هذه العناصر في تكوين صورة جمعية للانتماء، وتُعد بمثابة أدوات لإنتاج الهوية وتجديدها، مما يجعلها عملية مستمرة لا تتوقف عند حدود زمنية أو مكانية، هذه العناصر تظهر من خلال الأدب وتبرز فيه، وقد اتّخذها –العناصر المُشكّلة للهوية- كثير من الكتّاب كآلية لتمرير صوت ما، بمعنى أن النصوص الأدبية أسهمت –وما تزال- في إنتاج خطابات ثقافية تُحدّد عبرها الهويات وتواجه بعضها بعض، خاصة ما ظهر ضمن الدّراسات ما بعد الاستعمارية من ردّ ومقاومة للخطابات الكولونيالية التي سعت إلى مركزة ذاتها في مُقابل تنميط صورة الشعوب المُستعمَرة ونبذ كل الثقافات الهامشية وإقصائها، ووفقا لهذا جاءت الرموز الثقافية وسرد الأصول وإعادة كتابة التّاريخ بمثابة مقاومة ومناهضة لكل تكريسات الآخر/الكولونيالي، في هذا الشأن يذهب وحيد بن بوعزيز إلى أن هومي بابا "يبحث ذائبا عن الكيفية التي يشتغل بها الخطاب الكولونيالي كشيء نشأ عن علاقة إنتاجية، أي عن سيرورات التماهي التذاوتية التي تتجاوز التصنيفات البسيطة المختزلة في ثنائية مهيمن/ مهيمن عليه"8

ومن المفاهيم التي قُدمت للهوية الثقافية "أن كل فرد له انتماءٌ إقليميٌ ووطني ولغوي، وأن لكل ذات كينونة وطابعا يُمثلها هذه الذات "بما لها من قيم أخلاقية وجمالية تُميزها ، ويتضمن ذلك أيضًا الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة وتقاليدها وعاداتها وأسلوب حياتها ، وإحساسنا بالخضوع

له والمشاركة فيه ،أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية"[9] وتبعا لذلك "فالإنسان يصنع "هويته مع ما يبديه من شعور بالانتماء لمجموعته العرقية والدينية، ومن خلال تعزيز قيمه بممارسة الأفعال الدالة على ذلك، والسيرورة في الإنتاج الإبداعي، والذي يبرز ويتشكل بالالتزام بالقيم المعبرة عن هويته"[10]

2-1- الخطاب الأدبي الجزائري بين الوعي ومقاومة الاستلاب:

تعدّ الهوية في السياق الأدبي الجزائري سؤالا جوهريا وقضية إشكالية، ذلك أنّها من أكثر القضايا الفكرية والثقافية تعقيدًا، إذ ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بتاريخ البلاد الاستعماري، وما عاناه الإنسان من محاولات استلاب وغزوٍ ومحوٍ منذ بدايات تواجده على هذه الأرض، فـ "الظلم التاريخي والسياسي والفكري والثقافي الذي مارسه الفكر الغربي المتمركز على ذاته انطلاقا من مبدأ الأنانة الفلسفي، ولّد ردة فعل قوية في الأوساط الغربية الرافضة لهذا التمركز وفي الأوساط التي كانت ميدانا لهذا الظلم في النصف السفلي من المعمورة وفي بعض الأوساط التي تعيش في المنافي في الميتروبول، لهذا سيكون نشوء مجال نظري يهتم بتفكيك المركز وبإعادة الاعتبار لكل ما هو هامشي حالة طبيعية في مسار صراع الإيديولوجيات والتحولات الجدلية للتّاريخ "[11] كذلك التّحولات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها الجزائر خلال العصرين الحديث والمعاصر أسهمت بشكل كبير في تبلور التجربة الأدبية والتوجهات المختلفة التي تبناها الكتّاب، ومن ثَمَّ فالهوية الجزائرية –إن أمكننا القول- ليست معطى ثابتًا أو جوهرًا منغلقًا، بل هي بناء تاريخي متعدّد المستويات، تشكّل عبر تداخل عوامل لغوية وثقافية ودينية وحضارية، اكتسب الأدب عبرها أهمية مركزية بوصفه فضاءً تعبيريًا يعكس تمثّلات الذات الجماعية وصراعاتها، ويعيد إنتاج خطاب الانتماء والاختلاف في آن واحد.

من الضروري أن نعي جيدا بأن محاولات الغزو والاحتلال التي عاشها المجتمع الجزائري بمختلف مراحله شكّل لحظة مفصلية على الصعيدين الثقافي واللغوي للجزائر، حيث فُرضت اللغة الفرنسية كلغة رسمية في الإدارة والتعليم والإنتاج الثقافي، في مقابل تهميش اللغة العربية ومحاولة طمسها، لقد وجد "الخطاب الكولونيالي نفسه هنا، متورطا مع آليات تحليلية-نفسية، حيث يغدو الوعي مرتعا لتجاذب التماهي ونزعه مع الآخر، بغية خلخلة كل فكرة عن الهوية كبناء مسبق أو مكتمل"[12]

هذا الوضع أنتج بلا ريب مشهدًا أدبيًا معقّدًا، تبلور فيه خطابٌ أدبيٌّ جزائري بالفرنسية، حيث اتّخذ الكتّاب الجزائريون من الفرنسية أداة للتعبير عن قضايا وطنهم وكلوم شعبهم وما آلت إليه الأوضاع الاجتماعية جرّاء الممارسات الاستعمارية الظالمة، ورغم استخدامهم للغة المستعمِر جاءت النصوص تنبض بروح الجزائر وتاريخها وثقافتها ورموزها، ما دفع بالنقّاد والمهتمين بحدود الأدب إلى طرح

إشكالية بارزة تمثلت في: كيف يمكن لذاتٍ مستعمَرة أن تعبّر عن هويتها وذاكرتها بلغة الآخر الذي حاول محوها وإقصائها؟

في حقيقة الأمر أن أعمالَ كُتّابٍ عظامٍ مثل كاتب ياسين، مولود فرعون، محمد ديب، مالك حدّاد، مولود معمري، وآسيا جبار عكست بشكل جليّ هذا الصراع الهوياتي للأدب، فهي نصوص قاومت الآخر بالكتابة، وعبر تفاوضها مع اللغة تمكّنت من خلق فضاء مزدوج لطرح أفكارها وتمثيل ذاتها، ومن ثمَّ، إثبات انتمائها وهويتها، لا يُمكن بأي شكل من الأشكال –حسب رأينا- أن نتجاوز ما قدّمه هؤلاء الكتّاب للأدب الجزائري وما أرسوه من قواعد خطابية حوّلت المرآة من مُستَضعف إلى مُقاوم، ومن جاهل إلى واع يواجه الاستلاب، ومن تابع إلى صاحبِ أرض وتاريخ يُناهض لأجلهما، لقد حوّلت هذه الكتابات أداة الهيمنة إلى أداة للتمثيل الذاتي والمقاومة الرمزية، فكانت اللغة في الأدب الجزائري المُهاجر ليست مجرد وسيلة للتعبير، بل هي حقل صراع دلالي وثقافي، تُختبر فيه حدود الانتماء الوطني وتُعاد فيه صياغة الذّاكرة الجماعية، واستعادة حقيقة أصالة الشعب بإعادة تسريد تاريخه المجيد، ومما لا ريب فيه أنّ الذات لا يُمكنها أن تتكوّن بمعزل عن الجماعة فهي جزء منها، إنّها تتشكل فيها وتبرز من خلالها، في هذا الصدد تشير كاريس باركر أن الأفراد يحاولون "إنشاء سرد متماسك للهوية من خلاله تشكل النفس مسارا للتطور من الماضي إلى المستقبل المتوقع...ويُبنى مشروع الهوية على ما نعتقد أننا عليه الآن في ضوء ظروفنا في الماضي والحاضر جنبا إلى جنب مع ما نظن أننا نود أن نكون عليه، إنه مسار مستقبلنا المأمول"**13**

إن دراسة الأدب الجزائري المكتوب بلغات غير العربية، خصوصًا بالفرنسية، لا تقتصر على البعد الجمالي أو الأسلوبي للنصوص، بل تنفتح على رهانات أعمق تتعلق بتشكّل الهوية الوطنية، وبإعادة إنتاج الخطاب الثقافي في سياقات ما بعد الاستعمار، كما تمكّن من الكشف عن ديناميات التهجين الثقافي والتعدد اللغوي، بوصفهما مكوّنين أساسيين في فهم التجربة الأدبية الجزائرية، إذ "لا يمكن القول بأي شكل من الأشكال أن اللغة الفرنسية أضرت بالإبداع الأدبي والفني في المغرب العربي بل على العكس، أثبتت أن هذه الكتابات ما هي إلا إدانة للاستعمار بلغته وكلماته، ونظرا لاتساع الجمهور المغربي والإفريقي الناطق باللغة الفرنسية لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق هذه اللغة" **14**ومن جهة أخرى لا يمكن للخطابات الأدبية –الرواية خاصة- أن تكون بمنأى عن هوية المجتمعات وتكويناتهم، ذلك ما عبّر عنه بول ريكور بالهوية السردية، وهي في مجمل معانيها "شكل من أشكال التماهي التخيُّلي مع الدولة القومية، ويُعبّر عنها من خلال الرموز والخطابات، ومن ثمَّ، فالأمم ليست مجرد تكوينات سياسية، بل هي أيضا أنظمة من التمثيلات الثقافية، ومن ثم، من خلالها تكون الهوية الوطنية

مستنسخة باستمرار عبر الفعل الخطابي، ولأن الثقافة ليست كيانات جامدة، بل هي تشكّلٌ عبر ممارسات متغيرة تعمل على عدة مستويات اجتماعية مختلفة"15

لم يقتصر تأثير الاستعمار عبر ممارساته الظالمة واللا مشروعة على المجال السياسي والاقتصادي فحسب، بل امتد ليشمل اللغة بوصفها أداة مركزية في مشروع الهيمنة الثقافية، فبينما سعت فرنسا إلى فرض لغتها باعتبارها لغة "التمدين" ومحو اللسان العربي، تحوّل هذا الفرض اللغوي إلى فضاء للمقاومة الخطابية مع بروز جيل من الكتّاب الجزائريين الذين أعادوا توظيف الفرنسية، لا بوصفها أداة استلاب، بل كوسيط للتعبير عن الذات الجماعية والكينونة الوطنية، حيث طوّر هؤلاء الكتّاب استراتيجية لغوية مزدوجة تقوم على تفكيك خطاب المستعمِر من داخل لغته نفسها، وإعادة تشكيله بما يخدم سرديات التحرر والانتماء، فالكتابة بالفرنسية أتاحت لهم، من جهة، اختراق المجال العمومي الاستعماري والدولي وإيصال الصوت الجزائري إلى الآخر، ومن جهة ثانية، وفّرت وسيلة لتثبيت وصون الذاكرة الجمعية ومقاومة محاولات محوها، وفقا لذلك لعب السرد دورا فاعلا –عبر إعادة سرد عناصر الهوية الوطنية المشتركة- في مواجهة عملية الاستلاب التي سعى إليها المستعمِر، وأسهم بشكل جلي في مناهضته والرد على خطاباته وممانعته داخل لغته، وضمن هذا الإطار "الهوية الوطنية الموحدة تكون مبنية عبر سرد الأمة، الذي من خلاله تكون الحكايات، الصور، الرموز، الطقوس تمثل معاني مشتركة للأمة، كما أن الهوية الوطنية تنطوي على تماهٍ مع التجارب المشتركة والتّاريخ كما قيل من خلال القصص، والأدب، والثقافة الشعبية ووسائل الإعلام"16

تُعدّ تجربة كاتب ياسين مثالًا بارزًا على هذا التحوّل؛ إذ وصف الفرنسية بأنها «غنيمة حرب» وأعاد توظيفها لتعرية بنية الاستعمار وإبراز الوعي الوطني، بينما نظر مالك حداد إلى الفرنسية بوصفها منفاه اللغويّ الذي استطاع عبره إيصال صوت وطنه للعالم، لقد وظّف مالك حدّاد هذا المنفى نفسه أداةً للتعبير عن التمزق الوجودي للمثقف الجزائري في ظل الاستعمار، كذلك أسهم مولود فرعون ومولود معمري في تفكيك الصورة النمطية التي رسمها الخطاب الكولونيالي للجزائريين، من خلال بناء نصوص سردية تنقل التجربة الإنسانية الجزائرية في تعقيدها وتعدّدها وتصف خصوصيتها الثقافية ووحدتها الهوياتية، وقد تحقّق ذلك بإعادة سرد الأصول/ البدايات، فكانت الحكايات الشعبية والأسطورة والعادات والتقاليد كآلية رمزية للمقاومة والاستمرار، ووفقا لهذا "تؤكد سرديات الأمة على التقاليد واستمرارية الأمة كوجود داخل طبيعة الأشياء، جنبا إلى جنب مع الأسطورة التأسيسية للأصل الجماعي، وهذا بدوره يفترض وينتج رابطا بين الهوية الوطنية والشعب الأصلي، النقي، أو التقاليد الشعبية، وعلى هذا النحو، يمكن إدراك الأمة كجماعة متخَيلة، والهوية الوطنية

كبناء يتم تجميعه من خلال الرموز والطقوس فيما يتعلق بالأصناف الإدارية والإقليمية،ومن ثَمَّ فالهويات الوطنية مرتبطة جوهريا بالأشكال الاتصالية ومبنية من خلالها"17 فالتاريخ إذن يمثّل أحد أهم مكونات الهوية، فهي تستند إليه ليمنحها بعدا وجوديا وتبني الهوية من خلاله كيان الذات الثقافية، وضمن مجالات فسيحة وأزمنة حافلة بالتنويعات المتباينة تَثبُت الذات في سياق الوجود التاريخي "حيث يصبح التاريخ عنصرا تتكون منه الهوية، لأنّها تتشكل في الذّات عبر الزمن منذ ولادتها إلى موت هذه الذات، إن الهوية على مستوى التاريخوية مكونة من ثلاث أفكار مركزية تتمثل في: امتداد الوجود بين الحياة والموت/ الثّبات للذات/ التّحول) ...إن الهوية بهذا المعنى، ليست فقط ما يسمح بحيوية الإحالات إلى الماضي بطريقة ما، إذ أنها يمكن أن تكون بواسطة المستقبل أيضا بما هو تحوّل"18

إذن فالتوظيف الواعي للغة الفرنسية ضمن الأدب الجزائري شكّل ممارسة رمزية للمقاومة، تتجاوز بعدها الأدبي لتلامس المجال السياسي والثقافي، وتؤسس لنموذج من الكتابة الهجينة التي تُعيد توزيع القوة الخطابية بين المستعمِر والمستعمَر. كما أسهم في بناء خطاب وطني حديث قادر على التفاعل مع الفضاء الفرانكفوني من موقع الفاعل لا المفعول به.

ثانيا: <u>الهوية الثقافية كاستراتيجية لاسترداد الذات:</u>

إن المتتبع الواعي لمسار الأدب الجزائري يكتشف حتما مراحل التّحولات الكبيرة التي شهدتها النصوص الأدبية الجزائرية منذ بداياتها الأولى، ونعني هنا خاصة ما تعلّق بتحولات الكتابة في خضم التجربة الاستعمارية، ما أدى فعليا إلى بروز آليات خاصة واستراتيجيات مُغايرة لما أنتجته آداب باقي الشعوب، وعلى رأسها آليات المقاومة الثقافية التي اتخذت من الرموز الاجتماعية والقيمية والتّاريخية ذرعا لحماية الذات من محاولات الاستلاب، ذلك أنها سعت عبر لغة مُزدوجة إلى استرداد الهوية الثقافية للذات الجماعية ونذكر من عناصر هذه الآلية (التهكم، السخرية، تقزيم الآخر وإعلاء الذات الجزائرية، استخدام الأسماء الجزائرية....)

2-1- لغة الآخر كأداة للمواجهة:

إنّ بروز الأعمال السردية التي تناقش الهوية وتُسائلها، وتبحث في ما خلّفه الظلم الكولونيالي من خراب وتدمير على المستوى الإنساني والاجتماعي واللغوي والقيمي، أسهم في إثراء الدّراسات النقدية التي تطرح إشكالية مستقبل الهوية، وعلى نحو ذلك "تأتي دراسة نورة فرج الموسومة بـ "ارتباكات الهوية أسئلة الهوية والاستشراق في الرواية العربية الفرانكفونية" والتي تستمد خطابها النقدي حول مساءلة الهوية العربية وقلقها عبر الاتكاء على الأعمال الروائية العربية التي اختار مبدعوها الكتابة

بلغة الأوروبي، وتحديدا اللغة الفرنسية" 19 فالأدب إذن أخذ دورا فاعلا في عملية المقاومة –المقاومة الإبداعية- ناهض عبر خطاباته ثقافة الآخر/ المُهيمن في أحاديته ومركزيته، فجاء الإبداع المُهمّش ليُقوّض الهيكلة الخطابية التي رسّختها القوى الاستعمارية لفترات طويلة من الزمن، وهو في دوره المُقاوم يؤسس لبناء ثقافي يرتكز إلى قيم الإنسانية العالمية التي ترفض الأحادية وتدعم التعددية والاختلاف.

في خضم هذه المواجهات الثقافية بين الأحادية والتّعددية، تبرز قضية اللّغة وإشكالاتها المعقدة، لغة الخطاب مقابل القضايا التي يتم طرحها عبره، فـ"هنالك بعض الأعمال تنحو نحو تعرية خطاب المستعمِر في الوقت ذاته لاسيما لدى آسيا جبار وعبد الكبير الخطيبي وأهداف سويف وغيرهم من أدباء كتبوا بلغة الآخر ومن هنا نتجت تساؤلات عدّة حول استعارة لغة الآخر، من حيث كونها إضافة للثقافة العربية أم أنها تساهم في خلخلة الهوية؟ كما أشار شاكر نوري"20 ثم مركز هذه اللّغة في الحضور الثقافي "يمضي جابر عصفور في هذه المساءلة لإشكاليات الثقافة العربية كما يظهرها كتابه "نحو ثقافة مغايرة" ولعل أبرزها مسألة اللّغة، وما ينتج عنها من ولع المغلوب بتقليد الغالب، أو التنازع اللغوي بين اللغة المحلية واللغة الأجنبية، والأخيرة تتخذ موضعا مقاوما لدى بعض النخب المثقفة التي تتبناها بحجة نقض دعوى المستعمِر، مما دعا جابر عصفور إلى نعتهم بكتّاب ما بعد الكولونيالية المتموضعين في نطاق الهويات المزدوجة، ولعل هذه الاستراتيجية تمتلك وعيها الخاص المرتكز على الهوية، وتعدد مستوياتها من حيث البحث والطرح والتناول"21 وتبعا لذلك تمضي الخطابات الأدبية – الروائية منها خاصة- إلى اتخاذ لغة المُستعمِر كاستراتيجية مركزية للدّفاع عن الذات الجمعية ومقاومة كل محاولات النفي والنبذ والإقصاء.

لقد جاءت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية كآلية حتمية لرفض كل ما صوّره المُستعمِر وما مارسه في حق هذا الوطن، ومحاولة منها لترميم الهوية الجزائرية بتمايزها الثقافي، وإثبات جذور هذه الأمة الضاربة في عمق التّاريخ الإنساني، وتأكيدا لهذا الطرح فصّل الناقد وحيد بن بوعزيز في كتابه "جدل الثقافة" كيفية توظيف محمد ديب في قصته "سيمورغ" أسطورة معروفة في الأدب الفارسي، وهي قصة السيمورغ - أو ما يُعرف في الثقافة العربية بطائر العنقاء- المطروحة في ملحمة الشاهناماه لكاتبها الفردوسي، حيث راح محمد ديب –حسب وحيد بن بوعزيز- يتناص مع سيمورغ فريد الدين العطار في قصيدته منطق الطير، التي تشبه كذلك نص ابن سينا ونص جلال الدين الرومي، إنما هذا التوظيف الأسطوري لرموز الثقافة الشرقية هو سعيٌ لاسترداد الذات الجماعية/الشرقية وانتمائها وجذورها الضاربة في عمق التّاريخ، كذلك يأتي هذا السعي "بغية ترميم الهوية المتآكلة جراء الآلة

الخطابية الكولونيالية، هو في الحقيقة هدف استراتيجي للنقد برمته...فالهوية وترميمها من أكثر الاستراتيجيات حضورا، وهي تستغرق كافة المقاربات النقدية، فالدّافع لكل منتج خطابي مقاوم هو في الحقيقة الهوية وتكوينها"22 ومن ثَمَّ فالدّافع الأول لإعادة تسريد التاريخ وتوظيف رموزه إنما هو إعادة تبلور للهوية والذي حتما ستجانس مع حركة الذات عبر الزمن، ويسهم جليا في إعادة تموضعها الثقافي الذي بدوره يؤسس لمعطى وجودي للذات ولهوية الجماعة معا، "أو احتمالات أخرى يمكن أن تتخذها هوية الذات مشروطة بإرثها الثقافي الماضي، حتى تتكون في الحاضر وفق علاقاتها التاريخية الثقافية التي تكونت على إرثها، على ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفهم خاصية التحول الذي تتصف به الهوية مع المحافظة على كيانها الأصيل"**23** في الشأن نفسه يذهب رامي أبو شهاب في كتابه الرسيس والمختالة إلى أن "إشارات محسن جاسم الموسوي في كتابه انفراط العقد المقدس تعمل على استراتيجية تقابلية بين الوعي الكولونيالي للهيمنة على الآخر عبر إخضاعه، وتعليم اللغة الكولونيالية...يضع الموسوي تصورا لأثر الآخر على الأنا وتحولاتها في ضوء الاستعمار" 24 كذلك "دراسة محمد لطفي اليوسفي التي تتخذ من السرد ذي الهوية الناطقة بلغة الآخر نموذجا لمساءلة الاستعمار والصراع في اللغة والمكان، حيث يقيم دراسته على نصوص روائية للجزائرية آسيا جبار، وهنا نلحظ تعدد مستويات البحث ضمن استراتيجية الأنا-الآخر، حيث يشير اليوسفي إلى كتابة التاريخ من منظور المنتصر، ولكن هذه العملية تتحول إلى التقويض، حين تلجأ المرأة في المستعمرات إلى سرد تاريخهنّ الخاص، وهو ما يطلق عليه اليوسفي، "في مواجهة سرد الآخر"25 فعلا يُمكن عدّ النصوص التي كُتبت بلغة الآخر نصوصا تخلق نوعا من الصراع الثقافي بين الأنا/العربية والآخر/ الغربي، فهي تبحث في جوهر هذا الصراع عن وجودها وكينونتها في العالم الإنساني، "فاللغة لدى آسيا جبار تتمثل بقدرتها على صياغة التّاريخ من منظور المرأة التي عانت التجربة الكولونيالية، ولهذا يثمن محمد لطفي اليوسفي هذا الدور ويتتبعه في دراسته محيلا إلى أثر توظيف اللغة في إعادة سرد التّاريخ في رواية "فانتازيا" وهنا تكمن المواجهة السردية بين الغازي وصاحب الأرض، إن استعانت المرأة باللغة الفرنسية أداة لتقويض سرد الآخر لا سيما حضور الأخير بالنص في متن الرواية وسرديته للتّاريخ"26

تذهب آسيا جبار في روايتها فانتازيا إلى محاولة الرد بالكتابة، فمن خلال تتابع فصول الرواية تسرد الكاتبة حياة الأهالي والأحداث وفق رؤية المستعمر، وعبر التوثيق التّاريخي للوقائع الاجتماعية والسياسية تقدم آسيا جبار الوضع كما نظر إليه الفرنسيون أمثال الكولونيل سانت آرنو وبيليسييه وأمابلماتير الذين يصورون أمجادهم وانتصاراتهم في الجزائر، ويوثقون ما قاموا بيه تدمير وهدم وما

خلفوه من خراب وإبادة "يقول الكولونيل سانت آرنو في رسالة موجهة لأخيه: إني أسد المنافذ كلها حتى لا يتسرب الهواء وأسوي جبانة فسيحة"27

تكشف آسيا جبار ضمن روايتها -مستندة في ذلك إلى وثائق تاريخية- رؤية المُستعمِر في عنجهيته ونظرته المتعالية إزاء الجزائر وشعبها، كذلك تُحيل إلى حضور سردية الغازي وفكره الاستعماري بلغته، وفي المقابل أنشأت الكاتبة سردية مضادة تقويضية، تقوم على سردها لجرائم الاحتلال، وتعمد آسيا جبار في رواياتها إلى توظيف أشكالا مختلفة من الثقافة الجزائرية، كاللغة العامية، واللباس الجزائري، والعادات والتقاليد، والموروثات الشعبية كالحكاية والأمثال، لتبني خطابا جزائريا مُقاوما ومُقوضا لسردية الآخر بلغته "وهو يشبه التعري كما أشار اليوسفي من نص لآسيا جبار: وتعمد المؤلفة في بعض المواضع إلى إدراج ومضات توضح موقفها من كتابة السيرة في اللغة الفرنسية التي تكتب بها وتعدها لغة عدو الأمس، نقرأ "حين أتعرى في هذه اللغة أمارس خطر الاشتعال الدائم، فالأمر يعني كتابة للسيرة الذاتية بلغة عدو الأمس"28 والكتابة بلغة العدو –بوصف آسيا جبار- ليس بالأمر الهين على الكتّاب الجزائريين، ووفقا لذلك " يقارب اليوسفي آلام الكتابة بلغة الآخر لدى آسيا جبار ويعمل على الكشف عن حيثياتها وملابساتها، حيث تتملك صاحبها الغربة ولهذا تلجأ آسيا جبار لاستخدام اللغة الشفهية أو العامية... فاستخدام لغة الآخر يملك جوانب غير بريئة ومخاتلة، فهي إن بدت في ظاهرها تبعية للاستعمار إلا أنها تقوضه، وتعتبر إدانة له، يقول شاكر نوري بهذا الصدد: فاللغة الفرنسية تبعا لانتشارها في بلدان المغرب العربي وإفريقيا، يمكن أن تكون قناة أو أداة للتأثير في الوعي الثقافي، لمن عانى من الاستعمار"29 نلتمس في كتابات آسيا جبار هذا الجدل الذي سعت الكاتبة إلى تقديم ذات شخصيتها لكن مقابل علاقته مع الآخر/ الذات عينها التي تعد جزءا من موضع التساؤل أو الكينونة أو الوجود؟ "لمست بيدي قماش الحايك، آه لكم أستشعر فخرا جما وأنا بجانبها" 30

"السائرة غارقة تحت الحرير الناصع، بحيث لا يمكن للمرء أن يرى سوى عرقوبيها أو عينيها السوداوين أعلى العجار"31

تتسع الدّراسات في هذا المجال لتبحث في الجوهر الإشكالي لهوية الشعوب المُستعمرة بعد ما طالها من تدمير، هذه الأزمة في الحقيقة ما زالت تطفو بشكل جلي على سطح آداب الشعوب المُهيمَن عليها، في صور من التّمزق والتشظي والانشطار ، يظهر فيها الأدب في رحلة البحث عن الذات والهوية والوطن، في دراسة لمالك شبل تحمل عنوان "الهوية والأدب في الجزائر القومية بعد حرب التحرير يستمد الكاتب آلياته "من استراتيجيات فرانز فانون مدخلا لمقاربته ذات الطابع النفسي، فثمة إشارات إلى سمات كتابة آداب ما بعد الكولونيالية من خلال مفردات التعبير عن الاغتراب، والعودة إلى الماضي،

وبعث المحلية، والعودة إلى الأصول، وتقديم العرقية، ونموذجها الواضح أعمال كاتب ياسين، ومالك حداد، ومحمد ديب، فمالك شبل يعلي من شأن دور الأدب في تعميق الوعي بالوجود الذي تهدد وتلاشى في حضرة الآخر لهذا يقول: تحت هذه النظرة الخارجية التي تعارض هويته، يصل المستعمَر إلى الشك بهويته الشخصية إلى حد من الضغط الروحي والأنطولوجي الذي يصبح معه قادرا على اتباع الحذر، وهذا وقد يتعرض للتدمير من جراء هذا الضغط، لأنه لا يحمل اسما" 32

فكل إنسان "يحمل طموحا لصناعة المجال الحيوي طبقا لحلم الوصول إلى الأفضل والأحسن، وكل إنسان لديه الدافع القوي لبناء مكانة والقيام بدور، ليس فقط على صعيد المعاش اليومي، إنما أيضا على صعيد الشأن العام، بذلك وحده يصنع انتماءه الذي لا يكفي أن يكون معطى له كهوية بالميلاد، وبذلك وحده يشعر بتجذر هويته، ومن خلال الإسهام في بناء المجال الحيوي، أي وطنه"33

لقد عُدّت اللغة ضمن آداب الشعوب المُستعمَرة إذن إحدى أهم أدوات التواصل اتي شكّلت عنصرا رئيسا في إعادة بناء المجتمعات المستضعفة، كذلك التّهميش اللغوي الذي طال اللّغات الأصلية للمجتمعات دفع المثقفين والكتّاب إلى استخدام لغة الاستعمار كوسيلة لنقل المعنى، وهذا ما أنتج وعاء جديدا للثقافة والهوية، وضمن هذا الفضاء المزدوج شكّلت اللغة مكونا أساسيا في بناء التصورات المشتركة داخل الجماعة. "تأخذ الهوية ككيان ثقافي أهم سماتها وأشكالها من البناء الثقافي الذي بدوره يتكون من عدّة أجزاء تُكوّن جسد الثقافة ككل، فتعتبر الهوية بمثابة ذلك الرابط بين الفرد والذات بالنظام الثقافي للمجتمع "إن البناء الثقافي والهوية التي يؤسس لها تعتمد رموزا معينة: اسم، أصل، آثار، آداب، خبرات، عادات، منجزات...ويحاول تصويرها كمنظومة متماسكة" 34

إن هذا التّحول في وظيفة اللغة الاستعمارية، يعكس قدرة الشعوب على إعادة امتلاك أدوات القوة الرمزية وتوظيفها لمصلحتها، فاللغة في الأدب الجزائري المُهاجر لم تعد مرتبطة بالهيمنة فحسب بل أصبحت جسرا للتّعبير عن الوجود والمطالبة بالحقوق وفضاء لإعادة تشكيل العلاقة بين المُهيمِن والمُهيمَن عليه، ومن خلالها أعادت الشعوب صياغة سرديتها الخاصة بلغة الآخر.

<u>خلاصة:</u>

إن التّبني الحاصل للغة العدو ضمن آداب شعوب المُهَيمَن عليها ونخص الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، إنما أُستخدم ليُعبر عن رفضه لصاحبها، ما دفعه لتوظيف عدّة رموز ثقافية (الحكايات الشعبية، الأغاني الشعبية، الأمثال، اللغة العامية، الأسطورة..) ورموز تاريخية (أبطال، أحداث..) واجتماعية (عادات، تقاليد، موروث مادي"لباس") ومن ثم جاء هذا التبني للغة الآخر للرد والمقاومة بُغية إعادة ترميم الهوية، واسترجاع الذات من جهة، والتأثير على المتلقي الغربي/العالمي من جهة ثانية.

ثم إن اتّخاذ اللغة الفرنسية كآلية مقاومة عمل على تشويهها وتفكيك ما فيها من مكامن قوة بإدخال الدّخيل عنها –ما ذكرناه سابقا من رموز- ليُعيد الكاتب تشكيلها لتكون أداة مواجهة وتقويض لسردية الآخر.

إن الأدب الجزائري المكتوب بلغات أخرى غير العربية يحتاج إلى تحليل دائمٍ للبنى الشعورية للذات مقابل الآخر، الذات الجزائرية/العربية/المسلمة بما تحوز من خصوصيات ثقافية وتاريخية واجتماعية مُقابل الحضور الغربي /الأوروبي/المُهيمن، حيث تختلط الدّلالات والمُكونات التي هي محط تنازع وصراع بين الذات والآخر "وفي ظل العلاقة المتأزمة بين الذات والآخر، بين المركز والهامش، وبين دول العالم المتحضر ودول العالم الثالث لا يغدو أن يكون الأدب والرواية بشكل خاص إلا جزءا من هذا الصراع، إنّه زمن الصراع بالهويات والذوات، وبالمراكز والقوى، بالشيوع والذيوع أو الانسلاخ والضمور حتى الأفول، هي حرب بالثقافات نتج عنها صراع هوياتي"35

إنّ الدّارس المهتم بالبحث في هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية مثلا ينظر في المقام الأول إلى أن الأدب هو مرآة تعكس الواقع بما يحمله من قضايا وأحداث وقيم بمعنى الخصوصيات التي تسِمُ الجماعة المُنتمية إليه، فالهوية كما أسلفنا الذكر هي مجموعة من الخصوصيات المركبة التي تميّز فرد عن غيره أو جماعة عن غيرها، والبحث في الهوية هنا ما هو إلا محاولة لإثبات ذات معينة وتحديد تموضعها إزاء الوجود الحضاري، ومن ثمَّ فالدّخول إلى عوالم هذه الذات وتحديد خصائصها هو تأكيد –بشكل أو بآخر- على كينونتها وحضورها وانتمائها للجماعة، وتبعا لذلك تعدّ الذات كيانا وجوديا ماديا تتموضع ضمن تكتّلات جماعية والهوية هي ما تمثّله هذه الذات ونعني ما يظهر منها وما يتجلّى من خلالها ثقافيا في أحايين كثيرة، لتُصبح الهوية ظاهرة ثقافية يُمثّلها الفرد المنتمي إليها، وتكون وجهً للثقافة يحمل مكوّنات تُعبّر عن أصالة الفرد في وجوده ويُعطيه ميزة التموضع والتكيف مع الوجود الحضاري/العالمي عبر الزمن، ويُمكننا هنا أن نحدّد أحد أهم هذه المكونات وهو "التاريخ" بما أن لكل جماعة انتماءها الخاص بها وعناصرها التي تشكّلها وسماتها التي تجعلها مغايرة عن الآخر، فلهذه الجماعة بلا ريب تاريخها الحافل بالوقائع والأحداث إضافة إلى مجموع المكونات والسياقات المختلفة في مستويات عدّة، لذلك فالبحث في التّاريخ أو إعادة سرده ضمن الخطابات الأدبية الرّاهنة وخاصة ما تقصد إليه هذه الدّراسة (الأدب الجزائري المُهاجر" لا يقتصر فقط على ذكر الأحداث من معارك وحروب في المجتمع وإنما هو إعادة إحياء لعلاقة الهوية والتّاريخ بما يحمله الأخير من إثبات وجودي وتوثيق لأصالة الشعب وإرثه الحضاري، لتغدو علاقة الهوية بالتاريخ علاقة وشيجة تكاملية لا ينفصل أحدهما عن الآخر ولا يكتمل بمنأى عنه ولا يتمثّل إلا من خلاله.

خاتمة:

بناء على ما سبق نخلص إلى النتائج الآتية:

-تشكّل الهوية بناء خطابيا فاعلا ضمن سرد الأمة، وتتمثّل عبر مجموعة من الممارسات الرمزية التي نحدد بها انتماء الذات وكينونتها، وقد أسهمت الهوية الثقافية في الأدب الجزائري المُهاجر في بلورة الوعي الهوياتي لدى الشعب، حي أعادت –بشكل أو بآخر- تشكيل الذات الجماعية وسعت إلى ترميمها واستردادها من الخراب الذي خلّفه المُستعمِر.

-لقد مثّل حضور الهوية الثقافية في الخطاب الجزائري المكتوب بغير العربية إثباتا للأصل بكل كثافته ذلك عبر العودة إلى حكايات النشأة وسرد البدايات والاستلهام من الذاكرة الجمعية بما تحمله من موروثات شعبية وإرث تاريخي عميق.

- جاء الكاتب الفرانكفوني كفرد واعٍ بمسؤوليته إزّاء وطنه وثقافته حيث أسّس –متخذا من الفرنسية أداة لمقاومة الآخر الغازي ومواجهته- مشروعا وجوديا أسهم في تقويض الهيكلة الخطابية المُتعالية التي سعى المُهيمن إلى ترسيخها لفترات طويلة من الحقب الاستعمارية، كذلك قدّم إضافة فاعلة في التجربة الأدبية

-إن الغزو الثقافي الذي مارسته فرنسا ضد الجزائر عبر فرض لغتها ومحاولة طمس اللغة العربية أنتج مشهدا أدبيا معقدا بالفعل، وعكس بشكل جلي الصراع الهوياتي داخل هذا الأدب، لكنّه وبلا ريب تمكنّ من خلق فضاء مزدوج للتعبير عن ذات الأمة الجزائرية، وأثبت جذورها وكينونتها ضمن الوجود الحضاري.

-جاءت اللغة في الأدب الجزائري المُهاجر وسيلة اتّخذها الكتّاب للتمثيل الذاتي والمقاومة الرمزية ضد هيمنة العدو، حيث خلقت حقل صراع دلالي وثقافي تمكنت عبره من إعادة صياغة الذاكرة واستعادة حقيقة أصالة الشعب، ذلك بإعادة تسريد تاريخه المجيد.

الهوامش والإحالات:

1- كريس باركر، معجم الدراسات الثّقافية، تر، جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2018، ص-382381
2- نفسه ص 385
3- دوغلاس روبنسون: الترجمة والامبراطورية، نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، تر ثائر علي ديب، دار الفرقد، سوريا، ط 2، 2009، ص 217
4- محمد حكيمي، تحوّلات الخطاب الثقافي من التنوير إلى ما بعد الحداثة "دراسة نقدية"، دار ميم للنشر، ط 1، الجزائر 2021، ص 122
5- جابر عصفور، الهوية الثقافية والنقد الأدبي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 2010، ص 82
6- كاريس باركر، معجم الدّراسات الثقافية، ص 382

7- نفسه، ص 385

8- وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مقالات في الآخرية والكولونيالية والديكولونيالية، دار ميم للنشر، طَ1، الجزائر 2018، ص53-54

9- انظر: دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية ، حمدي حسن المحروقي , ص 164

10- مصطفى الحجازي، الإنسان المهدور (دراسة تحليلية نفسية اجتماعية)المركز الثقافي الغربي، المغرب، بيروت ط2، 2004 ص250

11- وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، ص 89

12- نفسه، ص 53-54

13- كاريس باركر، معجم الدّراسات الثقافية، ص 384

14- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة (خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر النظرية والتّطبيق) نقلا عن شاكر نوري، منفى اللغة حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين، كتاب دبي الثقافية48، الصدى للنشر والتوزيع، أفريل 2011، ص 21.

15- كاريس باركر، معجم الدّراسات الثقافية، ص 385

16- نفسه، ص 385

17- نفسه، ص 385

18- محمد حكيمي، تحوّلات الخطاب الثقافي من التنوير إلى ما بعد الحداثة "دراسة نقدية، ص 111.

19- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، ص

20- نفسه ص 268.

21- نفسه، ص 232.

22- نفسه، ص 233

23- محمد حكيمي، تحوّلات الخطاب الثقافي من التنوير إلى ما بعد الحداثة "دراسة نقدية، ص 112.

24- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، ص 233.

25- نفسه، 233

26- نفسه، 268-269.

27- Asia Djebar : L'amour la Fantasia, édition Albin Michel, 1995, p90

28- نفسه، 241

29- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، ص 270.

30- آسيا جبار، بوابة الذكريات، تر، يحياتن، المركز الثقافي العربي، نوفمبر 2016، ص16.

31- نفسه، ص 15.

32- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، ص235.

33- مصطفى الحجازي، الإنسان المهدور، ص 250.

34- محمد حكيمي، تحوّلات الخطاب الثقافي من التنوير إلى ما بعد الحداثة "دراسة نقدية، ص 113

35- نفسه، ص 113